أ. محمد بن أحمد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم العلوم الإسلامية

إشكالية القراءة والتأويل الصوفي للمفردة القرآنية عند القشيري(ت:465هـ)

الملخص:

إن للكلمة القرآنية في السياق القرآني مزية لا نجدها في الكلمات التي يتشكل منها كلام الناس وتعبيراتهم مهما سمت في مدارج البلاغة والبيان، من هذا المنطلق تتطلع هذه الدراسة إلى الكشف عن جانب من تعامل واحد من أقطاب التصوف الإسلامي من خلال تفسيره المسمى"لطائف الإشارات" بمنهج تأويلي صوفي يبحث المعاني بطريق الإشارة.

من المتعارف عليه أنه لا بد لكل قراءة وتأويل من نص، والنص والتأويل مفهومان متجاوران في الحيز الجغرافي، متضادان ابستمولوجياً، فالنص عند العرب خرج من الحقل اللغوي والأدبي، أما التأويل فقد خرج من الحقل الديني (الإسلامي) والنص وفق التعريف اللغوي كما يقول ابن منظور في لسان العرب يعني «الوضوح والظهور» وفي التعريف الأدبي وفق ما يقول الجاحظ في البيان والتبيين «هو القول المكتفي بذاته، المكتمل بدلالته».

والنص وفق التعريف الديني كما يقول الغزالي في «المصطفى من علم الأصول»: «الذي لا يحتمل التأويل» وهكذا تشكل فريقان في النظرة إلى النص: فريق رافض للتأويل خرج بقاعدة «لا اجتهاد مع النص»، وفريق ثان يقبل التأويل قال بندرة النص، وخرج بقول ابن عربي: «ما في الكون كلام لا يتأول» فأشاع الفريق الثاني التأويل لكل كلام.

من هذا الطرح المتباين تعد الدراسات التأويلية وجهاً هاماً من أوجه البحث العلمي عموماً، وعلى صعيد العلوم والأنساق العلمية الاجتماعية والإنسانية بكيفية خاصة ولعل مسألة التأويل لم تكن وليدة اليوم، على الرغم من "الطابع العلمي" الذي أضف عليها في التأويلية المعاصرة، بل شكل التأويل أساس وجود النص، فكل نص يفترض قراءة، والقراءة تستدعي الفهم، وما دام الفهم محكوما بالذات في مختلف السياقات التي تحكم القراءة، فإنه سيبقى نسبيا ومتعددا ومختلفا ومتنوعا حسب الذوات والسياقات التي حكمها، وهذا أساس قيام التأويل ووجوده.
وقد شكل العصر الوسيط في الحضارة العربية الإسلامية أهم العصور التي نمت فيه الترعة التأويلية،ولأسباب متعددة ظهر الأمر التأويلي في الفكر العربي كأنه ملازم للصعيد اللاهوتي أو الديني، فقد شكل علم الكلام مجالا خصبا للمجادلة حول "النص الديني" حيث ظهرت تيارات عديدة هتم بالتأويل والتفسير معا، ومن جملة هذه التيارات وأبرزها، المدرسة الصوفية التي عرفت بتأويلاتها للنصوص الدينية عامة، ونصوص القرآن الكريم بخاصة، ومن أشهر علماء التصوف الإسلامي الذين عنوا بالتأويل الصوفي للقرآن

الكريم، أبو القاسم القشيري النيسبوري ت:465هـ، من خلال تفسيره الجليل "لطائف الإشارات".

ولعل من أهم ما يجذب القارئ أثناء تصفحه لهذا التفسير تلك الروح المبنية على تذوق اللفظة – مفردة ومركبة- تذوقا ينبني على أصول من اللغة والاشتقاق والإعراب والبلاغة،"فمن اللفظة المفردة تنبعث إيحاءات جميلة مؤثرة تزيد المعنى قوة وتأكيدا، كما يقول عند قوله تعالى:" بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ".(الدخان:08) اللعب فعل يجري على غير ترتيب، تشبيها باللعاب الذي يسيل لا على نظام مخصوص، فَوَصَفَ المنافق باللعاب تصويرًا لتردده وتحيره وشكه في عقيدته". والتسبيح عند القشيري مرتبط (بالسباحة في بحار التوحيد بلا شاطئ، فبعدما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح فحازت أيديهم جواهر التفريد،نظموها في عقود الإيمان ورصعوها في أطواق الوصلة.) والفجر(انفجار الصبح كما يتفجر الماء من الصخر)"

وهكذا يحاول القشيري أن يؤصل للمصطلح الصوفي من كتاب الله عز وجل كلما ورد هذا المصطلح صريحاً في القرآن الكريم:كالذكر،والتوكل والرضا، والولي والولاية، والحق، والظاهر والباطن، والقبض والبسط... بعبقرية تنم عن بصر نافذ في الأسلوب العربي والاشتقاق، فلا تملك إلا أن تحكم أن الصوفية قد استمدوا أصولهم وفروعهم من كتاب الله الكريم.

كذالك تلحظ عبقرية الشيخ إزاء اللفظة أو الآية حيثما لا يكون اصطلاح صوفي، فإنه يستخرج لك من آيات الطلاق إشارات في الصحبة والصاحب، ومن علاقة النبي- صلى الله عليه وسلم- بأصحابه إشارات عن الشيخ ومريديه، ومن مظاهر الطبيعة كالشمس، والقمر، والمطر والجبال

إشارات رائعة تتصل اتصالا وثيقا بالرياضات والمجهدات، أو بالمواصلات والكشوفات.

ويتجلى هذا المنهج التأويلي عند القشيري من خلال محاولته وضع أصول للمصطلح الصوفي بتأويلاته للمفردة القرآنية- على وجه الخصوص- ذات الجوانب المسايرة للبنية الإسلامية، عقيدة وتشريعًا ومعاملةً للمفردة القرآنية، ومن هذه التجليات نذكر مايلي:

أولا:التأويل الصوفي لمفردات العقيدة:

لم يدخر القشيري جهدا في سبيل إيجاد روابط تصل علم التصوف بالقرآن الكريم حتى يحوز شرف الانتساب إلى الأصل الكريم، فيكون لعلم التصوف ومفرداته أسسا يستقل بها وينماز عن بقية العلوم، عن طريق رده إلى أصول إسلامية مقبولة، لفك رموزه وألفاظه، وفهم اصطلاحاته.

1- الإيمان: فالإيمان "حقيقته التصديق ثم التحقيق، وموجب الأمرين التوفيق والتصديق بالعقل، والتحقيق ببذل الجهد، في حفظ العهد، ومراعاة الحد، فالمؤمنون هم الذين صَدَّقوا باعتقادهم ثم الذين صَدَقُوا في اجتهادهم"1. مصداقا لقوله تعالى:(الذين يُؤْمِنُونَ بالغَيْب ويُقيمُون الصَّلاَةَ) (البقرة/03). والتوفيق في عرف أهل الطريقة كما يقول أبو طالب المكي (ت: 386 هـــ) ، من خلال استقصائه للمعاني القرآنية والنبوية فيقول2: "التوفيق هو الاتفاق، وهو أن يجمع الله بينك وبين الشيء الذي تريده، ولابد منه في كل عمل وإن قل، قال تعالى:(وَمَا تَوْفِيقِيَ إلاَّ بالّلهِ) (هود/88) ولذا كان من دعائه- صلى الله عليه وسلم: "يا مُقلِّبَ القُلوبِ ثبِّت قَلبِي على دِينِكَ"3.

ويستنبط القشيري من العلاقة بين الرسول الأكرم ومن اتبعه من أصحابه للصوفية إشارات بين المريد وشيخه في سلوك الطريق من خلال قوله عز وجل في محكم التتريل ﴿فَإِنْ آمَنُوا بمثل ما آمنتم به فقدِ اهْتَدَوْا وإن تَوَلَّوا فإنَّما هم في شقاقٍ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾(البقرة/137) يقول: "إن سلكوا طريقكم، وأخذوا بسبيلكم، أكرموا بما أكرمتم، ووصلوا إلى ما وصلتم، وإن أبوْا إلا امتيازًا أبينَا إلا هواهم، فإن نظرنا إلى من خدمك يا محمد بالوصلة، وإعراضنا عمن باينك وخالفك، من خالفك فهو في شق الأعداء، ومن خدمك فهو في شق الأولياء"4. فهو يوصي المريد بإتباع طريق الشيخ وانتهاج سبيله حتى يصيبه من كراماته، وهذا بوصله وخدمته حتى يصل المريد إلى مقام الأولياء، فجعل الكرامة ثمرة للإتباع والوصل، والخدمة موجبة لاستحقاق مقام الأولياء.

2- التوحيد:وأما التوحيد عند القشيري"فالواحد من لا مثل له يدانيه، ولا شكل يلاقيه، لا قسيم يجانسه ولا نديم يؤانسه، لا شريك يعاضده ولا معين يساعده ولا منازعَ يعانده. أحديُّ الحقِّ صمديُّ العين ديموميُّ البقاء أبديُّ العزّ أزلي الذاتِ"، يعني إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد بنفي الأضداد والأنداد والأشباه بلا شبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل قال جل شأنه:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (الشورى/12)5. فالإمام القشيري يرى التوحيد من جانب التحقيق والمحو والفناء، وهي أحوال عند أهل التصوف يرى فيها القشيري مبادئ أساسية توصل العبد إلى تحقيق غاية التوحيد بتحول هذه الأحوال إلى مقامات

فالتحقيق تكلف العبد لاستدعاء الحقيقة جهده وطاقته

والمحو: محو رسوم الأعمال بنظر الفناء إلى نفسه وما منه بإزالة أوصاف النفوس6.أوهو محو أوصاف العادة7، ويقابله الإثبات الذي هو إقامة أحكام العبادة، وللمحو أنواع عند أهل التصوف منها: محو أرباب الظاهر، محو الجمع، محو العبودية، محو أهل الخصوص، وغيرها8.

والفناء فكما يقول صاحب الحكم العطائية "هو أن تبدو لك العظمة فتنسيك كل شيء، وتغيبك عن كل شيء سوى الواحد الذي ليس كمثله شيء وليس معه شيء أو تقول: هو شهود حق بلا حق كما أن البقاء شهود خلق بحق يقول بن عطاء الله: من عرف الحق شهده في كل شيء، ومن فني به غاب عن كل شيء، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيء"9وقد أنشد بعضهم في ذلك:

فقومٌ تاه في أرْضٍ بقَفْرٍ % وقومٌ تاه فِي مَيْدانِ حبه
فَأَفْنُوا ثم أفنُوا ثم أفنُوا % وأبقُوا بِالبَقا مِن قرْبِ ربّه

فالأول فناء عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق ثم فناؤه عن صفات الحق بشهوده الحق ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق.

ومن ثمة يتضح المغزي من تقييد القشيري للتوحيد بها إذ أن التوحيد حسب تصوره لا يتم إلا بالتحقيق الذي هو تكلف العبد لاستدعاء الحقيقة جهده وطاقته، والمحو عن رسوم الأعمال وأوصاف العادة، والفناء الذي يغيب به عن شهوده حتى لا يستشعر بالمحسوسات، ولا بالأغيار نتيجة لشهوده حقيقة الوجود الكلي.

3- العبادة: وأما مصطلح العبادة التي تعرف بكونها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة10. قال

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الذي خَلَقَكُمْ والّذِينَ مِن قَبلكُم لعَلّكُم تتَّقُونَ﴾ (البقرة/21) فهي عند أبو القاسم القشيري تدور حول معنى التوحيد والتفريد والتجريد حين يقول: "العبادة موافقة الأمر، وهي استفراغ الطاقة في مطالبات تحقيق الغيب، ويدخل فيه التوحيد بالقلب، والتجريد بالسّر والتفريد بالقصد، والخضوع بالنفس، والاستسلام للحكم، ويقال اعبدوه بالتجرد عن المحظورات، والتجلد في أداء الطاعات، ومقابلة الواجبات بالخشوع والاستكانة، والتجافي عن التعريج، في منازل الكسل والاستهانة". فهي قراءة تأويلية صوفية من لدن القشيري لمصطلح العبادة يرمي من خلالها أن يجعل لمصطلحي التفريد والتجريد الصوفيين، أصلا من مفردة العبادة المذكورة في الآية، كان اعتبار، أن التفريد درجة عليا في التوحيد، والتجريد ينفي الأغيار، والتفريد ينفي نفسه واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه11، وهو بهذا يضرب لهذين المصطلحين الصوفيين وتدًا ويمدهما بسبب من كتاب الله عز وجل.

4- **الغيب:** وأما مصطلح الغيب فقد ذهب الأئمة الثقات من أصحاب السنن والتفسير كالطبي في تفسيره فيما رواه من حديث بن مسعود- رضي الله عنه- أن النبي ع قال في قوله تعالى: ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(البقرة/ 03) "الغيب ما غلب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار، وما ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن، لم يكن تصديقهم بذلك يعني المؤمنين من العرب من قبل أصل كتاب أو علم كان عندهم"12. وهو ماتتلقفه الأذهان من قول القشيري عند حديثه عن مفردة الغيب الواردة في الآية يقول: "وأما الغيب فما يعمله العبد مما خرج عن حد الاضطرار، فكل أمر ديني أدركه العبد بضرب

الاستدلال، ونوع فكر واستشهاد فالإيمان به غيبيٌّ، فالربّ سبحانه وتعالى غيب، وما أخبر عنه من الحشر والنشر، والثواب والمآب، والحساب والعذاب، غيبٍ" ولم يقف القشيري كعادته عند حدود التعريفات الاصطلاحية للمفردات القرآنية، وإنما يتعداها فيضفي عليها لمساته الإبداعية ذات المناحي التأويلية الصوفية فتجده يبرع في توظيف مقاييس الاستدلال واستخدام أدوات الاستنباط في خدمة مصطلحات التصوف والصوفية بأسلوب أدبي راقٍ، يجعلك توقن أن مصطلحاتهم لها أصل من كتاب الله عز وجل.

يقول: "إنما يؤمن بالغيب من كان معه سراج الغيب، وأن من أُيّدوا ببرهان العقول آمنوا بدلالة العلم وإشارة اليقين، فأوردهم صدق الاستدلال ساحات الاستبصار، وأوصلهم صائب الاستشهاد إلى مراتب السكون، فإيمانهم بالغيب بمزاحمة علومهم دواعي الريب، ومن كوشف بأواع التعريف أسبل عليهم سجوف الأنوار، فأغناهم بلوائح البيان عن كل فكر ورؤية، فطلعت شموس أسرارهم، فاستغنوا عن مصابيح استدلالهم، وفي معناه أنشدوا

لَيْلي مِن وَجْهِكَ شَمْسُ الضحَا % وظَلاَمُهُ فِي النَّاسِ كما يرى

والنّــاس فــي سَــدَفِ الظَّلا % مِ ونحــن في ضوء النهار

وأنشدوا :

طَلَعَتْ شَمسُ مَن أَحَبَّكَ لَيْلاً % فَاستَضَاءَتْ وَمَالَهَا مِن غُرُوب

إِنَّ شَمْسَ النَّهارِ تَغرُب بِاللَيلِ % وشَمْسُ القُلُوبِ لَيــسَت تَغِيب

ومن آمن بالغيب بشهود الغيب غاب في شهود الغيب فصار غيبًا يغيب"

فقد انتقيت مصطلحات الاستبصار والاستشهاد واللوائح وكلها مصطلحات صوفية جرى نقلها بعناية من حقلها الصوفي وصبها في قوالب ذات مفاهيم قرآنية، تتمثل هنا في الأبعاد الدلالية لمفردة الغيب كركن أساس في بناء العقيدة الإسلامية حتى تكتسب شرعيتها وتحضى بشرف بالانتماء إلى الأصل القرآني، بحيث يتسنى للمريد السالك أن يرتقي بها في المنازل والمقامات فيدرك بها شهود الغيب الذي وصفه القشيري.

فهذه طائفة من الأمثلة وعينة من المفردات التي جرى بها قلم القشيري في إشاراته على كتاب الله عز وجل، مما هو داخل في باب العقيدة، قد عرف كيف يتأولها، ويلحق بها مصطلحات أهل التصوف، بضرب من البراعة في الأسلوب، ومعرفة بالاشتقاق، والاستنباط، بما يخدم أصحاب الطريقة ويجعل علمهم ومفرداتهم، مستمدة من كلام رب العزة ومفرداته.

ثانيا: التأويل الصوفي في مفردات العبادات.

وقد نالت المفردات أو المصطلحات المتعلقة بفقه العبادات –بدورها– حضها من عناية القشيري ولطائفه التأويلية عليهاومن ذلك نذكر على سبيل المثال:

1–الصلاة: فمفردة الصلاة بأكانها قد أثراها الشيخ بالبث في تعريفاته لحدودها،وإشاراته العرفانية لمراميها، فاجتبى من أسرارها وحكمها زادًا للتصوف وأهله، بعينهم على التشبث بالطريق وإتمام الركب إلى التحقق

والتخلق بآدابها التعبدية، ويتضح ذلك بوضوح عند أول اطلاع لنا على تعامله مع مفردة الصلاة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿الذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون﴾(البقرة/03) يقول: "وأما إقامة الصلاة فالقيام بأركانها وسننها، ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يُصلَّى له فيحفظ عليه أحكام الأمر بما يجري عليه منه، وهو عن ملاحظتها محو، فنفوسهم مستقبلة القِبْلة، وقلوبهم مستغرقة في حقائق الوصلة، وإن أصحاب العموم يجتهدون عند افتتاح الصلاة ليردوا قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون من الغرض، ولكن عن أودية الغفلة ما يرجعون، أما أهل الخصوص فيردون قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون ولكن عن حقائق الوصلة ما يرجعون، فشتان بين غائب يحضر أحكام الشرع ولكن عند أوطان الغفلة، وبين غائب يرجع إلى أحكام الشرع ولكن عند حقائق الوصلة"

فاستحضار عظمة الخالق، واستغراق القلب في حقائق الوصلة في مصير العبد محوًا عن ما يجري له من أقدامها، هي المَعَالم التي يرسمها القشيري للمريد حتى يتم هذا الركن الركين ويؤديه على أحسن صورة وأكمل وجهة، ترضي ربه، وتطمئن بها نفسه. فالقائم في صلاته- في تصوُّر القشيري- هو بحكم قربه من ربه مستغرق في لجّة بحر القرب، محو عن أوصاف العادة، غائب عن شهود أحكامها، مراقب لحضرتها، ومتحقق بحقائق الوصلة في أثنائها.

والأمر بإقامة الصلاة في نظره أمر بحفظ آداب الحضرة كما صرح بذلك في إشارته على قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة/43) يقول:"احفظوا آداب الحضرة، فحفظ الآداب أتم في الخدمة من الخدمة" والحضرة عند أهل الطريقة لها تعريفات وأقسام مختلفة

منها: حضرة الهوية، وحضرة الأسماء، وحضرة الأعيان، وحضرة الألوهية، وغيرها13 وقد أضحى مصطلح الحضرة في العرف الصوفي حاليا، مقترنًا بالاجتماع أسبوعيا أو يوميًا في الخلوة المرفقة بالمسجد أو بمترل شيخ الطريقة، حيث يلتقي الشيخ بمريديه، والحضرات ليست على مستوى واحد، فهناك حضرة المريدين وأخرى للذكر والسماع، وتستمر الحضرة غالبا من بعد صلاة العشاء إلى منتصف الليل، وعند انتهاء الحضرة يقوم الجميع لصلاة العشاء، وتعد الحضرة الصوفية من المراسم التي تتسم بها مجالس الصوفية"14.

من هنا تتضح الرؤية القشيرية ويتبين القصد من وراء تأويله لأمر الله بإقامة الصلاة على أنها أمر بحفظ الحضرة وقيام بآداب الخدمة، إذ أنه اعتبر القائم في صلاته، مجتمع بخالقه في حضرة ربانية مقدّسة، يلزمه الفناء فيها عن الأغيار، ومراقبة حضرة الحق الواحد القهار.

2-الركوع: وأما مفردة الركوع فقد نظر إليها القشيري من زاوية أخرى تنم عن عمق في التفكير لا يتأتى إلا لمن أفاء الله عليه بسعةِ الأفق، ونفاذ البصيرة، حيث يقول: (واركعوا مع الراكعين) تقتدي بآثار السلف في الأحوال، وتجتنب سنن الانفراد فإن الكون في غمار الجمع أسلم من الامتياز من الكافة" وإلى مثل هذا التأويل ذهب الإمام المراغي يقول: "أمرهم بالركوع مع الراكعين، أي أن يكونوا في جماعة المسلمين ويُصلوا صلاتهم، وقد حث على صلاة الجماعة لما فيها من تظاهر النفوس عند مناجاة الله، وإيجاد الألفة بين المؤمنين، ولأنه عند اجتماعهم يتشاورون في دفع ما يترل بهم من البأساء أو يجلس لهم السراء، ومن ثم جاء في الحديث: "الْمُؤْمِنِ الْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا"15وعبر عن الصلاة بالركوع ليبعدهم عن

الصلاة التي كانوا يصلونها قَبْلاً، إذ لا ركوع فيها"16 فهذه نصيحة قيمة أدّاها القشيري للسائرين في مدارج السالكين وللعامة على حد سواء، بالشد على يد الجماعة، وعدم الانفلات دونها لأنها سنة الخالق التي ارتضاها لعباده الذين أحاطهم بلطفه، وشملهم بعنايته، مصداقا لقوله جل شأنه: (مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ وَالِذينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا) (الفتح/29).

3-الزكاة: والزكاة باعتبارها الركن المالي الاجتماعي من أركان الأسلام الخمسة، فقد أظهر الإمام مقدرة خاصة على الغوص عميقًا في فهم الآيات القرآنية والأحكام التشريعية الفقهية، من خلال قراءته المتجددة لمفاهيمها البعيدة، بروح المتصوف الذي يعتمد على ألوان المجاهدات، وإطالة الوقوف على أسرار الآيات، فالمفردة القرآنية تؤخذ عنده من جانبي الشكل والمضمون حتى يُرتقى بها إلى مستوياتها الإعجازية البيانية عملا بقوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)(محمد/24)، ولا يصل العبد إلى هذه الدرجة العالية إلا بنقاء الروح وصفاء السريرة. ففي قوله تعالى:(وَأَقَامُوا الصَّلَاة وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) (البقرة/43) يقول: "الإشارة في إيتاء الزكاة إلى زكاة الهِمَمِ كما تؤدّى زكاة النّعَمِ، قال قائلهم:

كل شيء له زكاةٌ تُؤدَّى % وزكاةُ الجمال رحمةٌ مثلى

فيفيض من زوائد هِمَمِهِ ولطائف نظره على المتّبعين والمُريبن بما ينتعشون به".

فالزكاة بمفهومها الشرعي-وهي الحصة المقدَّرةُ من المال التي فرضها الله للمستحقين17- قد أضاف إليها القشيري مفهومًا جديدًا أطلق عليه مصطلح "زكاة الهِمَمِ" وهي ما يفيض من إرادة العبد تسطح على غيره، أو

هي ما يَمُدُّ به الشيخ أو العارف مريديه من شحنات روحانية يشحذ بها هممهم لمواصلة طريق الإرادة.

والزكاة هي من وسائل المريد لإقامة المواصلات وإدامة القربات عند القشيري كما قال تعالى: ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاة وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ﴾ (البقرة/110) وفي بيان ذلك يقول: "الواجب على المريد إقامة المواصلات، وإدامة التوسل بفنون القربات، واثقًا بأن ما يقدمه من صدق المجاهدات تَدْرُك ثمرته في أواخر الحالات".فزكاة المريد توسله لخالقه بأداء القربات بما يفيض عليه من همم المجاهدات.

4- الإنفاق: وعلى شاكلة مفردة الزكاة جرت سنة القشيري في التعامل مع مفردة الإنفاق وذالك عند وقوفه عند قوله تعالى: ﴿ أَلَـمٌ ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون﴾(البقرة/2، 3)، يقول:" وبيان الإشارة أنهم لا يدخرون عن الله سبحانه وتعالى شيئًا من ميسورهم، فينفقون نفوسهم في آداب العبودية، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة الربوبية، فإنفاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال، وإنفاق أرباب الحقيقة18من حيث الأحوال" فجعل الإنفاق على شاكلتين: إنفاق من الأموال، وإنفاق من الأحوال، إنفاق الأغنياء من أموالهم، وإنفاق العابدين بنفوسهم لا يدخرونها عن العبادات والوظائف، وإنفاق للعارفين بقلوبهم لا يدخرونها عن أحكامه، وإنفاق للمحبين بأرواحهم لا يدخرونها عن حبه. فإنفاق الأغنياء من النِّعم، وإنفاق الفقراء من الهِمَم.

فهذه إشارات عرفانية وهِمَمٌ قُشَيْرِيَّة قد أكسبت مفردة "الإنفاق" معنًى جديدًا جُعِل وقفًا لأهل التصوف، مستنبط من كلام رب العالمين ومستَلْهَمٌ من آياته.

5- الصيام: وإن نحن عرجنا تبصرا في مفردة الصيام الوادة في قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة/183). نجد شيخنا قد اعتبر الصوم في إشارته على هذه الآية الكريمة على ضربين: ظاهر وباطن يقول: "الصوم على ضربين: صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوبًا بالنية، وصوم باطن وهو صونُ القلب عن الآفات، ثم صوم الروح عن المساكنات، ثم صون السر عن الملاحظات، وإن من أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق، قال صلى الله عليه وسلم: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته" (رواه النسائي)19: الهاء في قوله عليه السلام- لرؤيته- عائدة عند أهل التحقيق إلى الحق سبحانه، فالعلماء يقولون معناه عندهم صوموا إذا رأيتم هلال رمضان وأفطروا لرؤية هلال شوال، وأما الخواص فصومهم لله لأن شهودهم الله وفطرهم بالله وإقبالهم على الله والغالب عليهم الله".

والملاحظ في هذا النص أن المفسر قد عمل على ترتيب الملكات الباطنة للإنسان من أسفل إلى أعلى وهي: النفس ثم القلب، ثم الروح، ثم السر، ولكل منها وظيفة ولكل وظيفة غاية، كما أن لكل منها آفات ولكن لكل علاج، وهو ترتيب التزم به القشيري في تفسيره حسب السياق الذي توحي به الآيات، ولم يتخل عنه لا في اللطائف وحده بل في كل ما بين

أيدينا من مصنفاته، حتى صار له مذهب واضح السمات بارز للقسمات في المعراج الروحي20.

وهذا النص أيضًا قد أعطى شعيرة الصيام عند مفسرنا وجهين: وجه يخص العابدين وآخر يختص به العارفون أو الخواص فالعابدون صيامهم عن المبطلات حتى أفول الشمس، والخواص-أي الصوفية- صيامهم مقترن بحفظ السر حتى شهود الحق.

وأما عند قوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالفُرْقَانِ) (البقرة/185)، فتأويل هذه الآية الكريمة قد أظهرت مذهب القشيري في التذوق الأدبي، ومنهجه في التفنن اللغوي، ومقدرته في الاستنباط الاستشاري من خلال تفتيقه للمعاني التي تنطوي عليها مفردة "رمضان" يقول: "رمضان يرمض ذنوب قوم ويرمض رسوم قوم، وشتان بين من تحرق ذُنوبه رحمتُه وبين من تحرقُ رسومه حقيقته.". فالرمضُ والرمْضَاءُ شِدة الحرِّ، والرَّمضُ مصدر قولك: رَمَضَ الرجل يَرْمَض رمضًا إذا احْترقت قدماه في شد الحر، والرمضاء: الرمال يقال: أرمضتني الرمضَاءُ أي أحرقتنِي، قال ابن دريد: لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة عموما بالأزمة التي هي فيها فوافق رمضان أيام رمضٍ مأخوذ من رمض الصائم يرمض إذا حر جوفه من شدة العطش21 وقد ذكر الرازي في تفسيره اختلاف أهل اللغة حول اشتقاق اسم رمضان على أربعة أقوال22.

بهذا المعنى فرمضان في تخريج القشيري على هذه الآية الكريمة قد حَمَلهُ على معنى الإحراق من شدة الحر، ومن ثمة وظفه في صيغة مجازية، فكأنه يحرق ذنوب قوم قد أصابتهم نفحاته وهم العامة، وآخرين يحرق رمضان رسومهم لأنهم وصلوا إلى إدراك حقيقة وهم للصوفية: في مقابلة

دأب مفسرنا على إقامتها بين أهل الظاهر وأهل الباطن مبينا في كل سانحة هدف كل طرف من وراء إقامة العبادة، مبرزًا في ذات الوقت علو مقام أهل التصوف ورفعتهم على من سواهم.

6- الحـــج: وفي مفردة الحج لم يحد القشيري عن النهج الذي رسمه لنفسه في التعامل مع مفردات القرآن الكريم ومفاهيمها الاصطلاحية فقد ربط الإمام في تأويله لقوله تعالى:(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ) (البقرة/197). بين الوقت المخصوص للحج بالنفوس وهي الأشهر المعلومات، والوقت الذي تحج فيه القلوب وهي أيام الشباب يقول: "كما أن للحج بالنفوس أشهر معلومات لا ينعقد الإحرام به إلا فيها، ولا يجوز فعل الحج في جميع السنة إلا في وقت مخصوص، من فاته ذلك الوقت فاته الحج، فكذلك حج القلوب له أوقات معلومة لا يصح إلا فيها، وهي أيام الشباب، فمن لم تكن له إرادة في حال شبابه فليست له وصلة في حال مشيبه، وكذلك من فاته وقت قصده وحال إرادته فلا يصح إلا للعبادة التي آخرها الجنة، فأما الإرادة آخرها الوصلة فلا".

فمن حرص على استثمار أوقات الشباب في فنون المواصلات وأنواع الطاعات والقربات كان موعودًا بالوصلة، ومن فاتته إرادة الشباب، فليس له من عمله إلا ما يوصله إلى دخول الجنة، فالوصلة التي قصدها القشيري —حسب ظني-هي النظر إلى وجه الله الكريم، وهي الغاية المذكورة في قوله تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) (يونس/26). فالزيادة هي تضعيف ثواب الأعمال، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور وللرضا عنهم وما أخفاه عنهم من قدرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنها زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا

يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر عن جماعة من الصحابة والتابعين منهم: أبو بكر الصديق، وحذيفة بن اليمام، وعبد الله بن عباس، ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة وغيرهم من السلف والخلف رضوان الله عليهم أجمعين23 كما وردت فيه أحاديث صحيحة كثيرة عن النبي-صلى الله عليه وسلم- ومن ذلك ما رواه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه عن صهيب-رضي الله عنه-أن الرسول صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية وقال: "إذا دخل أهل الجنةِ الجنّةَ نودوا يأهل الجنة إن لكم موعدًا عند الله لم تروهُ فقالوا وما هو، ألم تبيّض وجوهنا وتزحزحنا عن النار وتدخلنا الجنّةَ قال فيكشف الحجاب فينظُرونَ إليه فو الله ما أعطاه الله شيئًا أحب إليهم منه" (رواه أحمد ومسلم)24.

فهذه الإشارات على آية الحج هي من الهِمَم القشيرية التي فاضت في الطائفة وهي من النصائح الغالية التي قدمها لعباده الله الصوفية منهم وغير المتصوفة على اغتنام سنين الشباب للظفر في آخر المطاف بالوصل، قبل هجوم أيام الشيب فيفوت القصد فلا ولات حين مناص.

7- الطواف: والطواف كمفردة قرآنية من قوله تعالى:(وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (البقرة/125) قد استعان القشيري في تأويلها وإيصال الإشارة من ورائها إلى مصطلحي التلوين والتمكين الصُّوفيين للدلالة على صفات أرباب الأحوال وأهل الحقائق وحالهم في الطواف بالبيت.

فأما التلوين فهو الانتقال من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، وقد يسقط ويقوم، فإذا وصل إلى صريح العرفان وتمكن من الشهود، فصاحب تمكين25 فالتلوين صفة أرباب الأحوال، فهو للسالكين، والتمكين

صفة أهل الحقائق فهو للواصلين، "فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقي من حال إلى حال وينتقل من وصف إلى وصف ويخرج من مرحل ويحصل في مربعٍ فإذا وصل تمكن وأنشدوا:

مَا زِلتُ أنزِل فِي وِدادِكَ مَنزِلاً % تَتَـــحيَّر

الألبَابُ دُون نُزُولِه

وصاحب التلوين أبدًا في الزيادة وصاحب التمكين وصل ثم اتصل"26

والتلوين ينقل العبد في أحواله فهو عند الأكثرين مقام نقص، والتمكن عبارة عن غاية الاستقرار في كل مقام"27 فالمريد ما دام مترقيا في الأحوال يقولون: هو في تلوين، فإذا وصل إلى الغاية واستولى على المطلوب قالوا: هو في تمكين28.

من هذا البيان لمفهوم مصطلحي "التلوين والتمكين" عند أهل التصوف يبدوا جليًا ما كان يرمي إليه القشيري من توظيفهما، فالعارفُون المعاني طائفة في قلوبهم لأنهم أصحاب تلوين وعدم ثبات في الأحوال والمقامات، بينما قلوب الموحدين قد استقرت فيها الحقائق وتمكنت.

وجملة الأمر فيما يختص بتعامل القشيري مع مفردات ومصطلحات أركان باب العبادات فإننا نلحظ محاولات الحثيثة في إلحاق مصطلحات أهل التصوف بمفردات العبادات، فيقف مرة موقف الناصح الموجه ومرةً يظهر بصفة الصوفي الحريص على خدمة التصوف وأهله.

ثالثا: التأويل الصوفي لمفردات المعاملات والأخلاق

إن فقه المعاملات باعتباره دعامة من دعائم الصرح الإسلامي باعتباره مجموعة الأحكام التي تنظم علائق الناس الناشئة فيما ما بينهم،

والغرض منه تنظيم شؤون المجتمع لتحقيق الحياة الإنسانية الكريمة، قد لقيت أركانه اهتماما خاصا من الإمام القشيري في التعامل مع مفرداها لتعلقها المباشر بالحياة العملية للناس، ومن نماذج ذلك نذكر مايلي:

1- النكاح: فقد بين جل شأنه أن سبب تحريم زواج المسلمين بالمشركين هو أنهم يدعون إلى الكفر والعمل بكل ما هو شرٌّ يؤدي إلى النار قال تعالى:(وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتّى يُؤْمِنَ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ، وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتّى يُؤْمِنُوا ولَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِن مُشْرِكٍ ولَوْ أَعْجَبكُمْ، أُولَئِكَ يَدْعُونَ إلى النَّارِ، واللهُ يَدْعُو إلى الجَنّةِ وَالمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ويُبَيِّنُ آيَاتِهِ للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (البقرة/221). وهو نفس الموقف الذي ارتضاه الشيخ عند تفسيره للآية الكريمة يقول: "صلة حبل الدين والتمسك بعصمة المسلمين أتم من الرضا بأن تنتهي إلى حدٍ يسلك إلى الكفر، ولئن كانت رخصة الشريعة حاصلة في فعله، فإشارة الحقيقة مانعة من حيث التبرئة عن اختياره، هذا في الكتابيات اللاتي يجوز مواصلتهن، فأما أهل الشرك فحرامٌ مواصلتهم قطعًا، وأوجه مباينتهم في هذا الباب حكمٌ جَزمٌ".

فقد جُعلت في إشارة لطيفة، وحدة وتمسك المسلمين بدينهم الذي هو عصمة أمرهم، أتم في الدرجة من الرضا بأمور قد توحي في ظاهرها بالصواب، ولكن باطنها يؤدي إلى الخراب، فلم ينكر القشيري رخصة الشريعة في نكاح الكتابياتولكنه بين أن الحقيقة، لمن استفتاها مانعة لمن خاف الوقوع في الشبهة من ذلك. فجاء في هذا النص المفسِّر للآية الكريمة على ذكر مفردة الرضا التي هي أساس إقامة عقد النّكاح وشرط في صحته29.

فالرضا في اللغة يرد على معنى القناعة والاختيار والتسليم، قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة/ 144).ويرد أيضًا على معنى ينافي التسخط، أو الحُزن، أو الغضب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ (الأحزاب/51)30.

وأما في اصطلاحات أهل التصوف: فقد ورد عندهم على معنى الرضا بالأمر الكوني وهو الرضا بالقضاء والقدر، مع مراعاة أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذي أُمِر بالرضي به، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد، أو يجب عليه الرضا به، كالمعاصي، وفنون محن المسلمين.

وهذا ما أراد القشيري أن يوصله من مفهوم الرضا، فرب راضٍ يحسب أنه من القضاء الحسن، يورثه سوء ظنه وتقديره مِحنًا ومصائب لسوء فهمه، وقِصْرِ تدبره في العواقب.

2- <u>الطلاق:</u> وأما مصطلح الطلاق فللإمام في شرعيته إشارات يقتطف فيها من علاقة الزوج وزوجته أمارات في الصحبة والصاحب، وتحبيب التعامل بالحسنى وذم الخلال الذميمة وذلك في قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ (البقرة/ 229). فعبر عن سوء العشرة بين الزوجين الموجبة للطلاق وشبهها بفساد الصحبة التي تذهب لذة العيش وصفاء الخلة بين أصحاب الطريقة، يقول: "ندب إلى تفريق الطلاق لئلا تسارع إلى إتمام الفراق، فإما صحبة جميلة أو فرقة جميلة، فأما سوء عشرة وإذهاب لذة العيش بالأخلاق الذميمة فغير مرضي في الطريقة، ولا محمود في الشريعة، فإن في الخبر: العائد في هبته كالعائد في

قيئه"31 والرجوع فيما خرجت عنه خسةٌ". والطريقة: هي الطريقة الصوفية الحقة عندهم، وهي السيرة التي ينطلق بها السالكون إلى الله عز وجل، أو هي السَّيْرُ بالسّيرِ المختصة بالسالكين إلى الله من قطع المنازل والترقي في المقامات.

فقدر القشيري أنه كما يكون في فساد الأخلاق تقويض لأوامر العشرة بين الزوجين، وسبب في إيقاع الطلاق بينهما، فكذلك من تغيرت أخلاقه في صحبة أهل الطريقة ففراقه أحسن من صحبته لأنه رجع عن هبته ونكث عهده.

3- القصاص: فمن المعلوم أن عقوبة القاتل قبل الإسلام متباينة بين الديانات فعند فعند اليهود القصاص، وعند النصارى الدية، وعند عرب الجاهلية تشيع عادة الأخذ بالثأر، فيقتل غير القاتل، ثم أقر الإسلام أخذاً بالعدل والمساواة عقوبة القصاص، لأنها تزجر الناس عن ارتكاب جريمة القتل32، وفي هذا يقول القشيري:"حق القصاص مشروع، والعفو خير، فمن جنح إلى استيفاء حقه فَمُسلَّم له، ومن نزل عن ابتغاء حقه فمحسن، فالأول صاحبه عبادة بل عبودية، والثاني صاحب فتوة بل حرية، والدم المراق يجري فيه القصاص على لسان أهل العلم، وأما على لسان الإشارة لأهل القصة فدماؤهم مطلوبة وأرواحهم هدرة وفي هذا يقول الشاعر:

وَإِنّ فُؤادًا رَعَتْهُ لَكَ حَامِدٌ%   وإنّ دَمًا أَجْرَيْتَهُ بك فَاخِرُ

وسفك دماء الأحباب (فوق) بساط القرب خلوف أهل الوصال".

والعبادة والعبودية مصطلحان مصطلحان صوفيان والعبودية عند القشيري أتم من العبادة، فأوّلاً عبادة، ثم عبودية ثم عبودة، فالعبادة للعوام من

المؤمنين، والعبودية للخواص والعبودة لخاص الخاص.وأما الفتوة فهي: اسم أطلق على مجموعة من الفضائل، أخصها الكرم والسخاء والمروءة والشجاعة، تميز للمتصف بها عن غيره من الناس وقوامها الإيثار، مثل كف الأذى وبذل الندى وترك الشكوى، وإسقاط الجاه ومحاربة النفس، والعفو عن زلات الآخرين. ومن تعريفات القوم لهذه المصطلحات ، يتبين المغزى من وراء تسمية القشيري لمن أقام الحد وائتمر بحكم الشرع بصاحب عبادة وعبودية، ومن نزل عن الأخذ بحقه بأنه صاحب فتوة، لأن الأول ملتزم بأداء الشرع والاحتكام بمقتضاه والثاني صاحب كرم وسخاء وإيثار وعفو عن زلات الآخرين، إذ للفتوة عند القشيري أن يكون العبد أبدًا في أمر غيره33 كما قال عليه السلام: "لا يزال الله تعالى في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه المسلم" (رواه البخاري)34. وهي من دلالات هذه المصطلحات عند القوم، قد اتخذها الشيخ مطية للنفاذ إلى تبيان القصد من الإشارة الصوفية على الآية الكريمة.

4- <u>الوصية:</u> والوصية كمصطلح قرآني من الأمور المشروعة في الدين والتي أمر الله بها عباده فقال: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الوَصِيَّةُ لِلوالِدَينِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمعْرُوفِ حَقًا عَلَى المُتَّقِينَ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيم) (البقرة/181) لم تغفلها نكت القشيري وقراءاته التأويلية في كنهها يقول: "من ترك مالا فالوصية له في ماله مستحبة، ومن لم يترك شيئًا فأنّى بالوصية! في حالة الأغنياء يوصون في آخر أعمارهم بالثلث، أما الأولياء فيخرجون في حياتهم عن الكل، فلا تبقى منهم إلا همة انفصلت عنهم ولم تتصل بشيء، لأن الحق لا سبيل للهمة إليه، والهمة لا تعلق لها بمخلوق، فبقيت وحيدة

منفصلة غير متصلة". فربط الإمام بين ما يوصي به الأغنياء من الأموال بعد انقضاء آجالهم، وبين ما يخرجه الأولياء في حياتهم من أنواع المجاهدات وفنون للقربات، فلا يبقى لهم ما يوصون به لمن يرثهم، سوى همة كانوا يؤدونها متصلة ممدودة لغيرهم فانقطعت وانفصلت بانتهائهم.

وأما قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة/182). فإن كان تفسير هذه الآية الكريمة أنه من خشي أن يجنف الموصي ويقطع ميراث طائفة ويتعمد الإذاية أو يأتيها دون تعمد، وذلك هو الجنف دون إثم، وإذا تعمد فهو الجنف في إثم، فوعظه في ذلك ورده فصلح بذلك ما بينه وبين ورثته فلا إثم عليه"35

فإن القشيري قد جنح بالآية الكريمة إلى أبعد من هذا السياق، حين عد الآية الكريمة، إشارة إلى أهل البدايات في الطريق الصوفي بقوله:"الإشارة فيه: أن من تَفَرَّسَ في بعض المريدين ضعفًا، أو رأى في بعض أهل البداية رخاوةً قصد، أو وجد بعض الناصحين يتكلم بالصدق المحض على من لم يحتمله، فرأى أن يرفق بذلك المريد بما يكون ترخيصًا له أو استمالة له أو مداراة أو رضا بتعاطي مباح، فلا بأس به فإن حَمْلَ الناس على الصدق المحض مما لم يثبت له كثير أجر، فالرِّفقُ بأهل البداية، إذا لم يكن لهم صارم عزم، ولا صادق جهد، ركَنٌ في انتقاء الصلاح العظيم".

فهذا توجيه من القشيري الأصحاب الطريقة، والذين هم في بداياته على حسن المعاملة والرفق بالمريد، وعدم الشد عليه في التعامل حتى لا ينفر ويتخلى عن المواصلة، بحيث "يواظب الشيخ على توجيه المريد، ويسهم في حل مشاكله، ويرشده، ويلهمه بكل الهمة كأنما يتولى غرسًا حتى مراحل الحصاد، وهكذا يُقبِل المريد على الطريق راضيا بكل متطلباته وشرائطه"36.

ومصطلح البدايات عند القوم يعبرون به عن القسم الأول من الأقسام العشرة ذات المنازل العشرة التي يترلها السائرون إلى الله عز وجل.

فالقشيري قد قرأ هذه الآية قراءة صوفية، غير ما فسرها به المفسرون الذين جعلوا القصد منها للموحي إن خشي عليه من الخطأ والجور في حق الموصى لهم من تركته، في حين أوّل الشيخ مفردة "الموصى" المذكورة في الآية بالإشارة إلى المريد في أوبداياته الذي يخشى عليه من الزلل في طريق الإرادة.

5- الذكر والشكر: يَعُد القشيري الصبر والشكر - وهما مفردتان تدخلان تحت باب التزكية والأخلاق- قرينان يقربان العبد من خالقه، ويبرزان درجة محبته، والاستمرار في الذكر سبيل المريد للارتقاء من مرتبة لأخرى، ويتوقف ذلك على توفيق الله إياه في تقوية إرادته37، مصداقا لقوله تعالى:(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) (البقرة/152) والذكر عنده : "اسْتغراق الذاكر في شهود المذكور، ثم استهلاكه في وجود المذكور، حتى لا يبقى منك أثر يذكر، فيقال: قد كان مرَّةً فلان" وأما الشكر فهو من قبيل الذكر، والأمر بالذكر عنده أمر بالمحبة يقول:"الشكر من قبيل الذكر، والنهي عن الكفران أمر بالشكر، والشكر ذكر، فكرر عليك الأمر بالذكر، والثلاث أول حدِّ الكثرة، والأمر بالذكر الكثير أمر بالمحبة: أي أجبْنِي أحبُّك". وهو ما عُبِّر بمحبة الله لعباده، فإذا أحب الله عبده وفقه إلى ما يحبه ويرضاه.

6- العفو: العفو كما عرفه الراغب الأصفهاني في مفرداته هو التجافي عن الذنب38 قال تعالى:(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ) (البقرة/219) وهو

عند القشيري ضربان عفو على قدر الكفاية وهو للخاصة، وعفو بالإيثار وهو لخاصة الخاصة يقول:

"العفو ما فضل عن حاجتك، وهذا للخواص يخرجون من فاضل أموالهم على قدر كفايتهم، فأما خواص الخواص فطريقهم الإيثار وهو أن يؤثر به غيره على نفسه وبه فاقة إلى ما يخرج وإن كان صاحبه الذي يؤثر به غنيًا"،فأسند تخريجا للآية الكريمة في مقابلة وتناسب مصطلح الإيثار وهو الجود بالكل لخاصة الخاصة، وهم أعلى مرتبة عند الصوفية وجعل العفو للخاصة وهم أقل مرتبة، باعتبارٍ في درجة الفضل في الإيثار

وبعد فمفردات المعاملات والأخلاق في إشارات القشيري التأويلية لها تؤكد عند كل وقفة له معها على مكانة المعاملة والأخلاق في حياة المتصوف، باطنا بتزكيته لنفسه، وترويضها على الخلال الحميدة، وتنقيتها من الأوصاف الذميمة، وظاهرًا بانعكاس خلق التصوف النقي على غيره في حياته الاجتماعية وتعاملاته المعيشية.

الهوامش

1- القشيري أبو القاسم، لطائف الإشارات، تحقيق إبراهيم بسيوني-مركز تحقيق التراث مصر-ط2 1981م

2- عبد الرزاق (محمود)، المعجم الصوفي، ج2، ص 527- 528.

3- ينظر الحديث في: الترمذي (أبو عيسى)، سنن الترمذي، ج4، ص 448

4- القشيري ، لطائف الإشارات، ج1/ 114.

5- القشيري ، الرسالة، ص 292

6- السهروردي (شهاب الدين)، عوارف المعارف، ج2/ 320

7- ينظر: خفاجي (عبد المنعم)، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب-مصر، ط1 (د. ت) ص 26

8- القاشاني (عبد الرازق)، لطائف الأعلام، ج2، ص 621، 624

9- ينظر: ابن عجيبة (تاج الدين)، شرح الحكم، ج2، ص 315.

10- ابن تيمية (تقي الدين)، العبودية، تحقيق: محمد زينهم، محمد عزب، دار القلم للتراث- مصر، ص 9- 13.

11- ينظر: السهروردي (شهاب الدين) عوارف المعارف، ج2، تحقيق: عبد الحليم محمود، ومحمد بن الشريف، دار المعارف- القاهرة ط1
(د. ت)، ص .219

12- الطبري (ابن جرير)، جامع البيان في تأويل القرآن، ج1، ص 236

13- القاشاني (عبد الرزاق)، لطائف الأعلام، ج1، ص 336، 343

14- عبد الرزاق (محمود) المعجم الصوفي، ج3، ص 1156

15- الحديث: البخاري (أبو عبد الله)، صحيح البخاري، ج3، ص 182

16- المراغي(أحمد)،تقسيم المراغي، ج1،مطبعة مصطفى البابي-مصر ص 103

17- القرضاوي (يوسف)، فقه الزكاة، ج1، مؤسسة الرسالة- بيروت، ص 7.

18- أصحاب الشريعة عند القشيري هم غير الصوفية، أو العامة، أو هم الملتزمون بالعبودية بالقيام بما أمر من التكاليف وأرباب الحقيقة هم الصوفية أو الخاصة، أو هم المشاهدون لأثر الربوبية وما أنبأ من التصاريف، ينظر للتوسع في مفهوم الشريعة والحقيقة، القشيري (أبو القاسم) الرسالة، ص 87.

19- النسائي (أبو عبد الرحمن)، السنن الكبرى ج2 تحقيق: سليمان البنداري، سيد كسروي دار الكتب العلمية- بيروت، ط1 (1411هـ، 1991م)، ص 69.

20- إبراهيم (بسيوني)، الإمام القشيري حياته وتصوفه، ص 80- 84

21- والفيروز آبادي (محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط ج1/ 831.

22-ينظر: أقوال العلماء حول اشتقاق مفردة " رمضان"، الرازي (فخر الدين)، التفسير الكبير ، ج5، ص 71، 72.

23- للتفصيل في الموضوع: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 415.

24- الحديث: النيسابوري (مسلم)، صحيح مسلم، ج1، ص 163

25- ابن عجيبة (عبد الله)، معراج التشوف، ص 70.

26- القشيري (أبو القاسم)، الرسالة، ص 84.

27- القاشاني (عبد الرزاق)، لطائف الأعلام، ج1، ص 281، 282.

28- ابن خلدون (عبد الرحمن)، شفاء السائل، ص 89.

29- الأزهري (عبد السميع)، الثمر الداني في تقريب المعاني شح رسالة أبي زيد القيرواني، المكتبة الثقافية، بيروت، ، ص 437.

30- عبد الرزاق (محمود)،المعجم الصوفي، ج2، ص 714- 715.

31- الحديث: البخاري (أبو عبد الله)، صحيح البخاري (ج87/9)

32- ينظر: الزحيلي (وهبة)، التفسير المنير، ج2، ص 105، 107

33- القشيري، الرسالة، ص.34
34- البخاري، التاريخ الكبير، ج1، تحقيق: الندوي ، دار الفكر-بيروت، ص 404
35- الأندلسي (أبو حيان)، تفسير البحر المحيط، ج2، ص .27
36- القشيري (أبو القاسم)، ترتيب السلوك، ص 54، 56.
37- المرجع نفسه، ص 27
38- الأصفهاني (الراغب)، المفردات، ص 255- 256